نظرة حول الخط الأندلسي

محمد بنشريفة
كلية الآداب ــ الرباط

لَقِي الخط العربي والمخطوطات العربية في العقود الأخيرة عِناية ملحوظة. فقد نُشِرت نصوص متعددة وكُتِبت بحوث متنوعة حول الخطوط والمخطوطات العربية، ولم تقتصر هذه البحوث وتلك النصوص على التعريف والتاريخ، وإنما شملت تقريبا معظم ما يتصل بصناعة المخطوط كالأخبار أو الأمدة والرقوق وأنواع الكاغد والتسفير أو التجليد وغير ذلك مما يتصل بالخِطاطة والوراقة.

ومع هذا فإن الإضافات ما تزال مطلوبة. وموضوع الخط والمخطوطات في الغرب الإسلامي على الخصوص ما يزال في حاجة ماسة إلى المدارسة، وذلك أن معظم النصوص والبحوث المنشورة تتعلق بالخطوط والمخطوطات في المشرق، والسبب هو وفرة النصوص المشرقية حول الخط وندرتها في المغرب، ومما يدل على ذلك الثبت الذي أعده كوركيس عواد عن الخط العربي في آثار الدارسين قديما وحديثا، فنحن لا نجد فيه كبير شيء بخصوص الخط الأندلسي والمغربي(1).

ومما يلاحظ كذلك أن دائرة المعارف، في طَبْعَتَيْها، خلت من مادة خاصة بالخط في الأندلس أو المغرب؛ ومرد ذلك إلى أنه لا توجد مصادر تساعد على كتابة علمية دقيقة مفصلة في الموضوع. وكل ما نجده أو نعثر عليه إنما هو أخبار متفرقة؛ وعلى شيء من هذه الأخبار اعتمدت دراسات ظهرت منذ زمن لبعض المستعربين؛ ولعل أشهرها وأهمها دراسة عنوانها : محاولة في الخط المغربي Essai sur l'écriture magribine للمستعرب المعروف هوداس Houdas، وقد مر قرن على ظهور هذه

(1) مجلة المورد، العدد الخاص بالخط (1986م)، من ص 377 إلى ص 412.

المحاولة، وبعدها بنحو عشر سنوات نشر المستعرب الإسباني المشهور خوليان ربييرا مقالة عنوانها : المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية : Bibliotolos y Bibliothecas en la Españа Musulmana. والمحاولتان مترجمتان إلى العربية ومنشورتان[2]، ومع قدمهما وعلى الرغم من مآخذ قليلة عليهما، فإنهما تظلان من المحاولات الرائدة، وقد كتب الكثير بعدهما، وما يزال مجال القول ذا سعة. وسأحاول أن أعرض لبعض الجوانب في الموضوع مِنْ خلال بعض النصوص التي وقفت عليها.

من المعروف أن الأندلسيين والمغاربة عُنُوا عناية خاصة بنوع من الخط أو الرسم هو رسم القرآن الكريم، والمكتبة الأندلسية والمغربية زاخرة في هذا الباب، ولا تعدلها أي مكتبة، ويبلغ نصيب أندلسي واحد هو أبو عمرو الداني في هذه المكتبة مائةً وعشرين مصنفاً، ويعتبر كتابه «المحكم» وكتاب «البديع» لمواطنه ابن مُعاذ الجُهَني من أقدم ما ألف في الرسم المُصْحَفي، وإذا كانت أوضاع هذا الرسم هي «على غير المعروف من قياس الخط» فإننا نجد في الكتابين المذكورين ــ وهما مطبوعان[3] ــ إشارات إلى جذور الخط الأندلسي المغربي وأصوله وبعض الفروق بينه وبين الخط المشرقي، فمن ذلك ما كتبه الداني في المحكم حول ترتيب الحروف وتعليله الاختلاف الواقع بين المغاربة والمشارقة فيه وقد شرحه وبينه بما لم يجده لسالف ولا رآه لمتقدم كما قال[4]، ومن المعلوم أن هذا الاختلاف في الترتيب يظهر في معاجم اللغة ومعاجم الرجال والأنساب وغيرها[5]، وقد استعمل مرارا عبارة : «نُقَّاط بَلَدِنا»، يعني الأندلس وذلك في معرض الفرق بينهم وبين نقاط المشرق[6]، وَسمّى مرة أحد أولئك النُقّاط قال : «ورأيت في مصحف كتبه ونقطه حكيم بن عمران الناقط ناقط أهل الأندلس في سنة سبع وعشرين ومائتين»[7] وقال في مكان آخر: «وقد تأمّلْت مصاحفنا القديمة التي كتبت في زمان الغازي بن قيس صاحب نافع بن أبي نعيم

(2) الترجمتان منشورتان في مجلة معهد المخطوطات العربية ومجلة **حوليات الجامعة التونسية**.

(3) طبع المحكم مرتين بتحقيق الدكتور عزة حسن ونشر كتاب الجهني في العدد الخاص بالخط من مجلة المورد.

(4) **المحكم**: 28 (الطبعة الثانية).

(5) راجع في اختلاف ترتيب الحروف بين أهل المشرق والمغرب: **الذيل والتكملة** 1: 6ـ9 **ومقدمة** ابن خلدون.

(6) **المحكم**: 37، 54، 86.

(7) **نفسه**: 87.

ورواية مالك بن أنس». وحكيم بن عمران المذكور هو صاحب الغازي بن قيس[8].

ويبدو أن هذه المصاحف القديمة التي كانت مكتوبة بخط الجزم، وهو الخط الكوفي[9]، لم يبق منها شيء اليوم.

ومن الفروق بين الخط المغربي والخط المشرقي، التي ذكرها الداني، ذلك الفرق المشهور في نقط الفاء والقاف. وهذا كلامه :

«قال أبو عمرو : أهل المشرق ينقطون الفاء بواحدة من فوق والقاف باثنتين من فوقها، وأهل المغرب ينقطون الفاء بواحدة من تحتها والقاف بواحدة من فوقها، وكلهم أراد الفرق بينهما بذلك»[10] ولسنا نعرف متى ظهر هذا الفرق، ويبدو أنّه حدث قبل القرن الرابع الهجري؛ وفي مخطوط قيرواني كتب بالخط الكوفي في الثلث الأول من القرن الرابع للهجرة يبدو بوضوح نقط الفاء والقاف حسب الاستعمال المغربي، وقد حلل هوداس في مقالته هذا المخطوط تحليلا دقيقا[11]، وَلِتَعوُّدِ الأندلسيين والمغاربة على فائهم وقافهم كان الأمر يلتبس عليهم عندما يذهبون للرواية في المشرق ولا سيما في العصور المتأخرة، وهذه لطيفة يذكرها أبو الحجاج البلوي الذي رحل من بلده مالقة إلى الاسكندرية للرِّواية عن الحافظ السِّلَفي قال :

«كنت أقرأ على الحافظ السِّلَفي بالإسكندرية ـ رحمه الله وحرسها ـ جزءا من تآليفه فمررت فيه بحديث يرويه عن أشياخه عن الشافعي رضي الله عنهم قال : الفول يزيد في الدماغ، والدماغ يزيد في العقل ! وأهل تلك البلاد ينقطون الفاء بواحدة من فوق وينقطون القاف باثنتين من فوق أيضا، فلم أُلْقِ بالي وحسبت الفاء قافا فقرأت : القول يزيد في الدماغ، فضحك وكان حلوا ظريفا رحمه الله وقال لي : القول يفْرِغ الدماغ أو نحوَ هذه الكلمة، فقلت له : القول عندي في الكتاب، فقال إنما هو الفُول، فأعلمني بمذهبهم في النقط، فقلت له : كيف يزيد الفول في العقل، ونحن نقول في بلادنا بخلاف ذلك، فضحك وقال : سألت عن هذه المسألة شيخي

(8) انظر ترجمة الغازي بن قيس في **ترتيب المدارك** 3: 114ـ115 وترجمته حكيم بن عمران في (........).

(9) **رونق التحبير**، لابن سماك العاملي (مخطوط).

(10) **المحكم**: 37.

(11) راجع ترجمة مقالة هوداس لعبد المجيد تركي المنشورة في مجلة **حوليات الجامعة التونسية**.

فلانا ـ أنسيت أنا اسمه ـ قال : فقلت له كيف هذا وطبرستان أكثر بلاد الله فولا، وأهلها أخفّ الناس عقولا، فقال لي : لولا الفول لطاروا»[12].

ومن الفروق التي ذكرها الداني بين الخط المشرقي والمغربي رسم لام ألف، وهذا الفرق نجد التنصيص عليه عند أندلسي آخر من أهل القرن السابع الهجري وهو الشريشي شارح المقامات؛ فهو يشرح عبارة الحريري : «فعانقته عناق الألف للام»[13] بقوله : «يريد صورة لام ألف بالخط الكوفي، وهما بذلك الخط متعانقان متلازمان من الأعلى إلى الأسفل، أما بخط المغرب فلا معانقة بينهما إلا في الطرفين، وربما وقعت في بعض هذا الخط كالصَّلِيب، وفي بعضه لا التقاء بينهما البتة»[14].

لقد وجدنا عند الداني ما لم نجده عند ابن عبد ربه في «العِقد» فقد عقد كتابا لأدوات الكتابة لا يوجد فيه شيء يتعلق بالأندلس[15] مع أن حركة الخِطاطة والوِراقة كانت كبيرة في عهده ـ عهد عبد الرحمن الناصر ـ وقد بلغت شأوا عظيما في عهد الحكم المستنصر كما هو معروف، وظهر وراقون وخطاطون وخطاطات وتوجد أسماء عدد منهم عند ابن الفرضي وابن بشكوال وابن الأبار وغيرهم، وفي مقالة ريبيرا تجميع لمعظمهم[16]، ويكفي في الدلالة على مدى ازدهار الخط في الأندلس ما حكاه المؤرخ ابن الفياض قال : «كان بالربض الشرقي من قرطبة مئة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي. هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها»[17]. وكانت توجد بقرطبة في ذلك العهد أُسَرٌ يَشتغل جَميع أفرادها بالنسخ، وكانت الكتاتيب الخاصة والعامة تُعْنى أوَّل ما تعنى بالخط، ونحن نجد صدى هذا كلّه في أشعار رواها الحميدي في الجذوة[18] وابن الكتاني في التشبيهات

(12) **ألف باء**، للبلوي، 2: 159–160.

(13) راجع المقامة.

(14) **شرح المقامات** للشريشي، 3: 136.

(15) راجع كتاب **المجنبة الثانية في العقد الفريد**.

(16) راجع المقالة المذكورة في مجلة **معهد المخطوطات العربية**.

(17) **المعجب**، للمراكشي: 456–457. (ط. القاهرة 1963).

(18) من ذلك قول أبي الأصبغ المرواني في لوح ولده يخاطب أخاه الحكم المستنصر:

هاكَ يا مولاي خطّـــا ... مَطّه في اللّوح مَطّـــا
ابـن سبـــع في سنيـــه ... لم يطق للّوح ضبطـا
لم يقل في الضاد ظـاءً ... فحـوى لفظـا وخطـــا
دمت يا مولاي حتـــى ... يولَـدَ ابـنُ ابنِك سبطـا

ففي هذا المجموع الأخير بابٌ خاص للتشبيهات الواردة في الخط وأدواته لشعراء أندلسيين من عهد عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر، وهي تصف الأحرف والأسطر وتشبّه النونات بالأصداغ والسّوالف، والألفات بقدود المليحات[19].

إن ابن خلدون يرى أن ظهور الخط الأندلسي في هذا العهد الأموي كان مظهرا من مظاهر استقلالهم عن المشرق قال : «وتميّز مُلْكُ الأندلس بالأمويين، فتميّزوا بأحوالهم فِي الحضارة والصنائع، وَتميّز صنف خطهم الأندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد[20].» وأبرز الأمويين الذين كان لهم فضل في تشييد تلك الحضارة وترقية تلك الصنائع، ولا سيما صناعة الكتاب، هم عبد الرحمن الأوسط وعبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر صاحب المكتبة المشهورة «وقد جمع بقصره ــ كما يقول مؤلف المعجب ــ الحذّاق في صناعة النسخ والمهرَة في الضبط والمُجيدين في التجليد... واجتمعت له بالأندلس خزائن من الكتب لم تَكُن لِأحد من قبله ولا من بعده، وقلّما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده، وقد ذكرت المصادر أسماء بعض النساخ والخطاطين والمراجعين والمفهرسين الذين اشتغلوا في مكتبته[21]، واقتدى به عدد من أهل مملكته لعل أشهرهم عبد الرحمن بن فطيس قاضي الجماعة، وتأتي مكتبته في المرتبة الثانية بعد مكتبة الحكم.

ذكر ابن بشكوال في ترجمته أنه «كان حسن الخط جيد الضبط جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس مع سعة الرواية والحفظ والدراية.

وكان يملي الحديث من حفظه في مسجده ومستملٍ بين يديه على ما يفعله كبار المحدّثين بالمشرق والناس يكتبون عنه» هـ

وقد وصف بعضهم مجلسه فقال :

«شهدت مجلس القاضي أبي المطرف بن فطيس وهو يملي على الناس الحديث ومستملٍ بين يديه، وكان له ستة ورّاقين ينسخون له دائماً، وكان قد رتّب لهم على

(19) كتاب **التشبيهات**: 231ـ235.
(20) **المقدمة**: 956 (وافي).
(21) **المعجب**: 62.

ذلك راتبا معلوما، وكان متى علم بكتابٍ حسن عند أحدٍ من الناس طلبه للابتياع منه وبالغ في ثمنه فإن قدر على ابتياعه وإلا انتسخه منه وردّه عليه».

وقد وصفوا بناية هذه المكتبة وعينوا اللون الذي اختاره صاحبها.

«وكانت كتبه في مجلسٍ (أي قصر) جُدُراته بالخضرة، وسمكه وسطحه والبرطل أمامه والبسط التي فيه والنمارق كلها خضر».

وذكروا أن القاص صاحب المكتبة «كان لا يعير كتاباً من أصوله البتة، وكان إذا سأله أحدٌ ذلك وألحف عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ودفعه إلى المستعير وإلا تركه عنده».

وحكوا «أن أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتب جده هذا مدة عام كامل في مسجده في الفتنة في الغلاء وأنه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية»[21م] وثالث الحكم والقاضي أبي فطيس هو قرطبي آخر اسمه : محمد بن يحيى الغافقي يعرف بابن الموصول (ت 433 هـ). قال ابن الأبّار : «كان أديبا كاتباً جمّاعاً لدفاتر العلم من لدن صباه منتقيا لكرائمها بصيراً بخيارها عارفا بخطوطها يحتكم إليه في ذلك، مؤثرا لها على كلّ لذة، حتى اجتمع منها عنده ما لم يجتمع مثله لأحد بالأندلس بعهد الحكم الخليفة.

وكان عنده إصلاح المنطق بخط أبي علي القالي، والغريب المصنّف أصل أبي علي، ونوادر أبي علي، ونوادر ابن الأعرابي بخط أبي موسى الحامض وتاريخ أبي جعفر الطبري بصلة الفرغاني بخط ابن ملول الوشقي.

بيع هذا كله في تركته وأغلى فيها حتى لقومت الورقة في بعضها بربع مثقال»[22].

إنّ تميّز الخط الذي أشار إليه ابن خلدون زاد في عهد الطوائف؛ فقد دعا تعدُّدُ البلاطات إلى تعدُّد الكتّاب والخطاطين والناسخين. وكثر في هذا العصر انتساخ الدواوين الشعرية والأمهات الأدبية واللغوية وظهرت علاماتُ الضبط وسُنَنُ التصحيح في الجملة، يقول ابن الأفليلي شارح المتنبي :

(21م) **الصلة 1** : 298.
(22) نفسه : 122.

«كان شيوخنا من أهل الأدب يتعالمون أنّ الحرف إذا كتب عليه بصح بصاد وحاء أن ذلك علامة لصحة الحرف.

وإذا كان عليه صاد ممدودة دون حاء كان علامة على أن الحرف سقيم .. ويسمى ذلك الحرف ضبة..»(22م).

ثُمَّ توسّع القاضي عياض بعد ذلك في هذا الموضوع فقعّده في كتابه «الإلماع» وطبقه في كتابه «المشارق»، وقد انتقد الوقشي وغيره من الذين كانوا يتصرفون في النصوص ويصلحونها ثم يتبين أنّ إصلاحهم كان خاطئا(23).

ويمكن أن نرجع أيضا في الموضوع إلى أحد أعلام هذا العصر وهو ابن السيد في كتابه «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب». فقد خصص ستين صفحة للكلام على أدوات الكتابة وتحدث عن أصناف الأقلام وأجناس الخطوط نقلا عن ابن مقلة، وابن قتيبة في كتاب «آلة الكتّاب»، ويلاحظ عليه أنه لم يحدد المستعمل بالأندلس من أجناس الخط التي ذكرها.

إن الخط في عصر الطوائف أصبح حلية يتزين بها أبناء الملوك والأغنياء والفقراء على السواء. فالفقراء كانوا يتبلّغون بها رغم قلة مدخولها. وفي هذا يقول ابن صارة :

أما الوراقة فهي أنكد حرفة ... أوراقها وثمارها الحرمان
شبهت صاحبها بصاحب إبرة ... تكسو العراة وجسمها عريان(24)

والأغنياء ـ ومنهم أبناء الملوك ـ كانت تُنقذهم هذه الحرفة أحيانا من الضياع، فعندما فقد المُعْتمد بن عباد ملكه لم يجد أحد أولاده ـ وهو يحيى ـ إلا الوراقة يتخذها حرفة. وقد نسخ لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين نسخة من الموطأ، وصلتنا أجزاء منها(25)، وهي آية في الإتقان وعلامة على ما وصل إليه الخط في الأندلس يومئذ من الحسن والجودة، ومثل ولد المعتمد ولدُ ابن الرّميمي، فقد ذكر عبد الواحد المراكشي أنه عاش في فاس بعد الإمارة خاملًا يسكن غرفة ضيّقة ويقيم أوده من نسخ الكتب، وفي ذلك يقول :

(22م) جذوة المقتبس: 143.
(23) الإلماع: 169ـ176.
(24) قلائد العقيان: 259 (ط. 1284م).
(25) توجد في خزانة القرويين بفاس والخزانة العامة بالرباط.

أَمْسَيْتُ بعْدَ المُلْكِ في غرفَةٍ ضيّقة الساحـة والمَدْخَـلِ
تستوحِش الأرْزاقُ مِنْ وَجْهِهَا فَما تزالُ الدّهرَ في مَعْزِلِ
النّسْخُ بالْقـوت لَدَيْها وَلَا تقرَعهـا كَفُّ أَخٍ مُفْضِلِ(26)

وفي العصر المرابطي أيضا كانت طبقةٌ أخرى من الخطاطين لا تشكو من الحرمان، وهؤلاء هم كتاب الدولة، وأشهرهم أبو عبد الله بن أبي الخصال الذي كان يخط العلامة السلطانية بمداد خاص، وكان خطه أنموذجاً يُحْتَذَى(27)، وقد كان الكتاب والخطاطون في عصر الطوائف والمرابطين معجبين بخط ابن مقلة، وَينسب لأبي عبيد البكري تارة ولأبي مروان بن سراج تارة أخرى هذا البيت المشهور :

خطّ ابنِ مقلةَ من أرعاهُ مقلتَه ودّت جوارحُه لو أنّها مُقَلُ(28)

ويقولُ ابن قزمان الزجّال المشهور ــ وهو من عصر المرابطين :

وعَهْدي بالشّباب، وحسْنُ قدّي حكَى أَلِف ابْنِ مُقْلَةَ في الْكِتاب(29)

وكان خطه معروفا لدى الخطاطين، قال ابن خليل السكوني في فهرسته ــ وهو من أعلام العصر الموحِّدِي : «شاهدت بجامع العَدَبّس بإشبيلية ربعة مصحف في أسفار يُنحى به لنحو خطوط الكوفة إلا أنه أحسن خطا وأبينه وأبرعه وأتقنه، فقال لي الشيخ أبو الحسن ابن عظيمة ــ أشهر مقرىء مجود في ذلك الوقت ــ هذا خط ابن مقلة، وأنشد :

خط ابن مقلة من أرعاه مقلته ودت جوارحه لو أنها مقل

قال ابن خليل : ثم قسنا حروفه بالضابط فوجدنا أنواعه تتماثل في القدر والوضع. فالألفات على قدر واحد واللامات كذلك والكافات والواوات وغيرها بهذه النسبة(30).

(26) **المعجب**: 279.
(27) **رونق التحبير** (مخطوط).
(28) **قلائد العقيان**: 190.
(29) **نفح الطيب**، 4: 24. وكما شبه ابن قزمان القد الحسن بألف ابن مقلة شبه آخر الهلال بنون ابن هلال فقال:

وَلاحَ هلالٍ مثل نون أجادَهَا بِذَوْبِ النّضَارِ الكاتب ابن هِلالِ

(30) **نفح الطيب**، 4: 304.

وشاع في عهد الموحدين تقليد ألف ابن مقلة عند بعض الكتّاب والخطّاطين؛ وفي بعضهم يقول أحدهم :

الفقيـهُ ابْـنُ نُصَيْـرٍ خطّـهُ خط نبيـلُ
أِلفـاتٌ كرمـاحٍ بَيْنَهـا المَعْنَـى قَتِيـلُ

إن هذا العصر الذي تم فيه الاندماج بين الأندلسيين والمغاربة كان عصر غلبة الخط الأندلسي وانتشاره في بلدان المغرب، وذلك بحكم تعلّق الأندلسيين بأذيال الدولة وتشبّثهم بالخدمة في دواوينها؛ وفي هذا يقول ابن خلدون : «فانتشروا ــ أي الأندلسيون ــ في عُدوة المغرب وإفريقية من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد.. فغلب خطهم على الخط الإفريقي وعفا عليه وبقي منْهُ رسمٌ ببلاد الجريد»(31).

ونحن نجد مصداق هذا الكلام في مناقضة شعرية بين شاعر أندلسي هو ابن البراء الجزيري وآخر إفريقي هو ابن النحوي الجريدي فقد ذم هذا الأخير خط أهل الأندلس كما ذم إمامَهم ابن عبد البر وردّ عليه ابن البراء بقصيدتين وسماه معتوه قسطلة، ــ وهي بلدة بالجريد ــ(32). وتذكّرُنا هذه المناقضة بتلك التي جرت بين ابني حزم أبي محمد وأبي المغيرة وبين ابن الربيب القيرواني في المفاضلة بين إفريقية والأندلس(33).

كان عصر الموحّدين ملتقى لمختلف الاجتهادات المغربية والمشرقية في الخط وصناعة المخطوط وكان من كتّابهم ــ وجلهم أندلسيون ــ من «يكتب بأنواع الخطوط من الريحاني والمشرقي إلى غير ذلك فلا يدري مَنْ يزيد في الحسن على صاحبه(34)» وَقَدْ عُنِي عبد المومن وبنوه بإتقان الخط وذلك لحاجتهم إليه في وضع علامة «والحمد لله وحده» بأيديهم في صدور الرسائل والظهائر، قال ابن الأحمر في مستودع العلامة : «كانوا يكتبون العلامة بأيديهم ولم يكتبها لهم سواهم، وذلك من أولهم عبد المومن إلى آخرهم أبي دبوس»(35) وقد وصلتنا بعض الرسائل والظهائر من عهد

(31) **المقدمة**: 957 (وافي).
(32) **تحفة القادم**: 15ـ16 (إحسان عباس).
(33) راجع رد أبي المغيرة ابن حزم على ابن الربيب في الذخيرة ورد أبي محمد بن حزم في نفح الطيب.
(34) انظر ترجمة عبد الله بن ذمام في كتاب أعلام مالقة (مخطوط).
(35) **مستودع العلامة**: 21ـ22.

يعقوب المنصور ومحمد الناصر وعمر المرتضى[36] وعليها هذه العلامة التي ذكرها شعراء ذلك العصر كحفصة الركونية وابن مرج الكحل[37]، أما جنس خط العلامة فقد ذهب ابن عبد ربه الحفيد إلى أنه «القلم المسند»[38] بينما قال ابن الوكيل مُخْتَصِرُ نفح الطيب إنه «خط الثلث»[39].

وقد ظهَرَ في الخطِّ الأندلسي نفسه في هذا العهد تنوعٌ ملحوظ، إذْ نجد كتب التراجم تتحدث عن طريقة أهل شرق الأندلس وطريقة أهل غرب الأندلس[40]، وظهرت طرق وأساليب تنسب إلى خَطّاطين معروفين كابن خير الفاسي أو الإشبيلي على سبيل المثال، وفي هذا العهد استقرت مجموعة من قواعد الخِطاطة والنِساخة، وتقررت بعض الأحكام الجديدة في النقط، يقول ابن عبد الملك المراكشي : «إن نقط النون المتطرفة غلط جرى عليه جمهور الكتاب لأن النون المتطرفة لا وجه لنقطها إذ هي متميزة بصورتها، وإنما تنقط مبتدأً بها ومتوسِّطة، وحالها في ذلك حال الفاء والقاف والياء المسفولة فإنهن إذا ما تطرفن تميزن بصورهن فاستغني عن نقطهن، إذ الداعي إلى النقط خوف الالتباس فإذا ارتفع الالتباس كان الاعجام عبئا وكلفة لا جدوى فيهما»[41].

أما نساخة المصاحف فقد عرفت تطورا وازدهارا نستدل عليه بمثال ناسخ واحد فقط هو ابن غطوس الذي كتب فيما يقال ألْف مصحف وصل إلينا بعضها. فقد روى الصفدي أنه «كان له بيت فيه آلة النسخ والرقوق وغير ذلك لا يدخله أحد من أهله يدخله ويخلو بنفسه»[42]. فهذا معمل قائم الذات تام الأدوات.

وقد رأى الصفدي لابن غُطّوس أكثر من مصحف، وقال إنها شيء غريب في حسن الوضع ورعاية الرسوم ولكل ضبط لون من الألوان لا يُخلّ به فاللازورد

(36) انظر على سبيل المثال صورة رسالة المرتضى إلى البابا المنشورة في مجلة **هسبريس**.

(37) انظر أبيات حفصة وأبيات ابن مرج الكحل في **مستودع العلامة**: 22-23 **ونفح الطيب**، 4: 171 (إحسان).

(38) راجع تأليفنا: **ابن عبد ربه الحفيد**: 113.

(39) **مختصر نفح الطيب** لابن الوكيل (مخطوط).

(40) راجع مقدمتنا للسفر الثامن من **الذيل والتكملة**: 130-133.

(41) **الذيل والتكملة**، 4: 138.

(42) **الوافي بالوفيات**، 3: 351.

للشدّات والجزمات واللّكُّ للضمات وللفتحات والكسرات والأخضر للهمزات المكسورات والأصفر للهمزات المفتوحات»(43).

قال الصفدي : «وممن سلك هذه الطريق في المصاحف ابن خلدون البلنسي»(44).

وقد تحدثت المصادر التاريخية بإسهاب عن فنون زخرفة المصاحف في هذا العصر ووصلتنا بعض المؤلفات في صناعة التسفير وغيرها من صناعات الكِتاب(45).

وعندما انتهى زمن الموحدين حدَث ـ كما يقول ابن خلدون ـ تقلص في الحضارة وتراجع في الترف، ولكن آثار الخط الأندلسي ظلت موجودة في دولة بني نصر بِمملكة غرناطة وعند بني مرين في المغرب، وذلك بحكم استمرارهم في استعمال رجالات العهد الموحدي وأولادهم وتلاميذهم من الكتاب والخطاطين وغيرهم.

ونجد حول الخط في العصر الغرناطي فقرة عند أحد المؤّلفين من أهله وَهو ابن سماك العاملي الذي نقل كلام ابن السيد في أنواع الخط ثم قال:

«لا يعرف اليوم في زماننا هذا من أصناف الخط غير أربعة أنواع:

خط المغاربة وهو الخط الذي يكتب به الآن ويستعمل من أقصى المغرب والأندلس إلى الإسكندرية، يُتَداوَل الكَتْبُ به أزيدَ من خمسمائة سنة.

وخط المشارقة وهو الذي يُكْتَبُ به في مصر والشام والحجاز والعراق وهو عندهم صغير الثلث.

وخط المصاحف وهو الخط المبسوط المتداوَل كَتْبُه لهذا العهد.

وخط الجزم وهو الخط الكوفي ولم يبق منه اليوم إلا رسمٌ قليل في نقش الحيطان وفي بعض المصاحف القديمة»(46).

(43) **نفسه**، 3: 352.

(44) **نفسه**، 3: 352.

(45) من الكتب التي ألّفت في التسفير كتاب **التيسير في صنعة التسفير** الذي ألّفه بكر بن إبراهيم الإشبيلي برسم يعقوب المنصور و**رسالة التسفير** لابن القطان و**تحفة الخواص في صناعة الامدّة** وغيرها.

(46) **رونق التحبير** لابن سماك العاملي (مخطوط).

ويهمنا في هذا النص نوع المبسوط الذي استمر في المغرب وطبعت به المصاحف في المطابع الحجرية وكتب الصلوات والأدعية كدلائل الخيرات وغيرها.

ولا بأس أن نشير أيضا إلى ما كتبه حول الخط في هذا العصر البُنّاهِي في شرح المقامة النَّخْلية ونقتبس منه إشارته إلى مسألة الشكل إذ يقول:

«واخْتُلِف في الشّكْلِ والإعجام فاستقبحه أكثر الكُتّاب في الكتاب إلى الرئيس، وأجازوه في كتاب الرئيس إلى المرؤوس، واحتجوا في ذلك أن الرئيس يجل أن يُنَبّه على خفي أو يُظَنَّ به العجز عن علم مشكل، ثم لا ينكر من الرئيس تنبيه العالم فضلا عن تبصير الجاهل فلذلك رسموا فيه ما ذكرناه وحدوا فيه ما حددناه».

وإلى هذا النحو ذهب شيخ المحدثين بالأندلس الحافظ أبو علي الحسين بن محمد الغساني الجياني فكان لا يعجم ولا يشكل وكان من المعرفة بالمكانة المشهورة وهو مصنف الكتاب المسمى بتقييد المهمل..

ورأى قوم أنه لا يترك في الكتاب ما يجب بيانه كان ذلك لرئيس أو غيره...

وعلى هذه الطريقة جرى القاضي أبو علي الصدفي في كتبه فكان يشكل ما أشكل ويترك ما سوى ذلك[47]...

إن نقوش الحمراء الماثلة والمخطوطات الأندلسية الباقية خير دليل على مستوى الخط الأندلسي في هذا العصر، وقد ظهر فيه خَطاطون لا يقلون في الجودة عن أسلافهم، كما أن فنون صناعة الكتاب استمرت نشيطة، وقد وصلنا كتاب في خواص الأمِدَّة والأحبار وصناعة الكاغد وصناعة التذهيب، هذا الكتاب هو «تحفة الخواص» للقللوسي الذي ألفه برسم ابن الحكيم وزير غرناطة[48].

وهذا الكتاب شبيه بكتاب «عمدة الكتاب» الذي ينسب للمعز بن باديس صاحب المهدية، وهو مطبوع[49].

ولم ينته الخط الأندلسي بنهاية الأندلس الإسلامية، وإنما ظل مرجعا معتمدا بعد ذلك في المغرب الأقصى الذي احتضن تراث الأندلس ومنه الخط وما يتعلق

(47) **الإكليل في شرح رسالة النخيل** للنباهي. مخطوط خ.ع.ر. رقم 198، ص. 141.

(48) توجد منه نسخة في الخزانة الحسنية.

(49) نشر في أحد أعداد **مجلة معهد المخطوطات**.

به.ونحن نجد له استمرارا في عهد الشرفاء السعديين والعلويين ولا سيما في الأوساط المخزنية والأدبية.

وعندما نظم الفقيه الرفاعي منظومته في الخط لم يشر إلا إلى الخط الأندلسي من أنواع، وذلك قوله:

والخط أنواعه لا تنحصر   أفرادها يقصر عنها الخبر
لكن خيره الذي انتمى إلى   أندلس فسره قد اجتلى[50]

(50) راجع هذين البيتين وما بعدهما في شرح الناظم المخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 254د، ص. 271 وما بعدها.